البناء
السنة الثامنة / الخميس / 12 أيار 2016 / العدد 2075
Eighth year / Thursday / 12 May 2016 / Issue No. 2075

«مصائر» المدهون... وتهمة التطبيع

مصطفى لغتيري*

ما إن فازت رواية «مصائر... كونشرتو الهولوكوست والنكبة» للكاتب الفلسطيني ربعي المدهون بجائزة الرواية العربية العالمية المعروفة إعلامياً في جائزة «بوكر» العربية، حتى ارتفعت أصوات من هنا ومن هناك، خصوصاً من رواد مواقع التواصل الاجتماعي، حتى قبل أن يقرأوا الرواية، متهمين الكاتب وروايته بالتهمة الجاهزة الممثلة في «التطبيع»، طاعنين بذلك في أحقيته بالظفر بالجائزة، ومشككين في مصداقية لجنة تحكيم الجائزة كذلك، عبر قذفها بتهمة تسييس الجائزة.

حدث ذلك رغم أن جل الروائيين الذين وصلت رواياتهم للائحة القصيرة، رشحوا المدهون وروايته «مصائر» للحصول على الجائزة أياماً قبل الإعلان عن نتيجتها النهائية، ما يعني أهمية الرواية وأحقيتها في الظفر بالجائزة. وأظن أن أصحاب هذه الأصوات المتشككة يحاكمون، من حيث يدرون أو لا يدرون، الأدب بمعايير غير أدبية، وهم بذلك لا يختلفون في شيء عن المحافظين الدينيين، الذين دأبوا على استنكار محاكمتهم للنصوص بمعايير دينية أو أخلاقية، الفرق يتجلى فقط في أن المتشككين هنا لجأوا إلى المعايير السياسية بدل الأخلاقية. لكن في الحالتين معاً تم الاعتماد على معايير خارج النقد الأدبي للحكم على الأدب، وهذا ما يجب الانتباه إليه، وتجنبه قدر الإمكان لأنه يضر الأدب بشكل كبير.

وأظن صادقاً أن كل من سيحالفه الحظ لقراءة «مصائر» سيعرف أنها تحفة سردية راقية، تنتصر للسرد المحايد بلغته الناضجة، التي برع الروائي في جعلها قادرة على تقديم موضوع معقد ومتداخل الأبعاد بشخصيات عميقة ومختلفة الانتماءات والخلفيات الثقافية والإيديولوجية، جاعلة من الأحداث متوالية سردية تعمق المعنى بتطورها، بعيداً عن الانغماس في مكون اللغة، الذي أغرى وما زال يغري كثيراً من الروائيين، فجعلهم، بوعي أو من دون وعي، يهملون باقي مكوّنات العمل الروائي، الذي لا يخفى على أحد أن هويته لا تتحدّد إلا من خلال الاعتناء بها وتقديمها في أفضل حلة ممكنة. وأقصد الحكاية والأحداث والشخصيات والمنظور السردي وغيرها من المكوّنات.

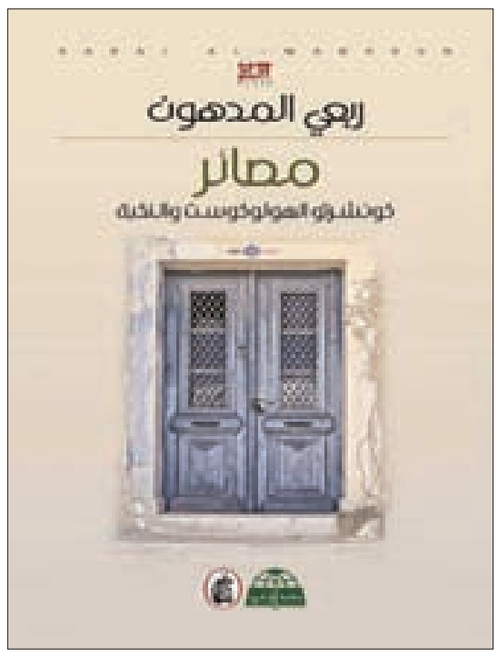

كما أن للمكان فيها شخصية قوية، قد تتفوق ـ في كثير من

الأحيان ـ على شخصيات الرواية، كما هو الشأن مع مدينة «عكا» وبعض بيوتها، التي رغم تهويدها ظلت صامدة، محافظة على جرحها مفتوحاً، حتى لإيدلمن فينسي، ومتابعة في الوقت نفسه حلمها العربي الذي أبداً لا تخبو شعلته، في انتظار الذي يأتي ولا يأتي. إنها بحق رواية جميلة تقدم نصّاً سردياً ممتعاً، فإضافة إلى فنيته اللافتة، فهو يقدم كذلك خدمة كبيرة للقضية الفلسطينية، خصوصاً لسكان أراضي 48، الذين ظلوا ممسكين بالجمر، رغم عدم تفهم كثير من العرب لمأساتهم المستمرة في الزمان والمكان، كما أنها تحيي ذكرى أولئك الذين طالهم التشريد رغما عنهم، وهم لا يتركون فرصة تمر من دون أن يداعب وجدانهم حلم العودة إلى

أحضان الأرض، لا بل يسعون إلى تحقيق ذلك بكل ما يملكون من حب وشغف. من دون أن تغفل الرواية الخلفيات التاريخية لسقوط فلسطين في يد العصابات الصهيونية، من خلال التركيز على التواطؤ الإنكليزي المفضوح، الذي سلّم الأرض وضميره معها للعصابات المحترفة التي هجّرت الإنسان واستولت على الأرض بعنجهية فريدة في التاريخ.

في الرواية شخصيات تعود إلى وطنها بعد التهجير القسري، وأخرى تحمل الوطن داخلها بكامل تفاصيله، تقدم للسياح الأوروبيين معلومات حقيقية عنه بالمجان، حتى لا يسقطوا في أيدي اليهود فيشحنوا أذهانهم بالأكاذيب حول تاريخ المدينة، وهذه المهمة النبيلة، تتكفل بها فاطمة العكاوية، التي يطلق عليها الأهالي فاطمة معلومات، بسبب معلوماتها الكثيرة والدقيقة عن المدينة، وكأنها كتاب مؤلف عن المكان، وهي بالطبع تفتخر بالدور الكبير الذي تقوم به حفاظاً على عكا حية في الذاكرة.

كما أن الحضور النسائي في الرواية قوي وفاعل، يتحقق من خلال الأم والحبيبة والمناضلة والزوجة والصديقة، إنه حضور يؤشر على الدور الكبير الذي تمارسه المرأة الفلسطينية من أجل الحفاظ على هوية المكان والإنسان، فكم هو لافت أن تطلب الأم من «وليد» أن يذهب إلى الجامع ويصلّي من أجلها، رغم أنها تعرف أنه لا يصلّي أصلاً، وهي لا تتدخل في ذلك، لأن الله وحده كفيل بمحاسبته على الأمر، أما ما طلبته منه فيعني شيئاً مختلفاً تماماً.

ومن أجواء الرواية تقرأ في الصفحة 60: «كان بيت الدهامنة الذي صار بيت روميه العروسي، نموذجاً لبيت عادي، صورة من ذاكرة كل بيوت عائلة دهمان، وربما المجدل كلها. جمع الإسرائيليون فيه ملامحنا القديمة مثل مقتنيات تراثية من ماض لا يعود، ماض جعلوه حاضراً، ووضعوا فيه ملامحهم. التي جاءوا بها من كل بقاع الأرض، مثلما جاءت رومه والآخرون».

ولا يمكن في نهاية هذه الورقة سوى أن أقول إن رواية «مصائر» تطبيع جميل مع الفن الروائي الذي يسعى من خلال حشد وفرة من التفاصيل والأحداث والمعلومات والأحاسيس من أجل خلق أثر أدبي متميز، وهذا بالضبط ما حققه ربعي المدهون من خلال هذه الرواية المتوجة.

* كاتب مغربيّ

تراب دمشق يحتضن جثمان الإعلاميّ والفنان الكبير خلدون المالح تنفيذاً لوصيته

لحظة إخراج جثمان الراحل الكبير من مسجد الأكرم

شُيّع ظهر أمس الإعلامي والمخرج السوري الكبير الراحل خلدون المالح من منزله الكائن في المزة ـ دمشق، حيث صُلّي على جثمانه في مسجد الأكرم ووري في الثرى في مقبرة باب الصغير في دمشق بحضور إعلاميّ وثقافيّ وفنّي.

شارك في التشييع أصدقاء درب الراحل الذين عاصروه وأحبوه فكانوا حاضرين ليلقوا تحية الوداع الأخيرة لقامة فنية وإعلامية ووطنية كبيرة قدمت خلال مسيرتها الطويلة الكثير من الأعمال التي كرّست وجسّدت حب الوطن.

وكان خلدون المالح قد توفي في الخامس والعشرين من الشهر الماضي عن عمر ناهز 78 سنة، على إثر مرض عضال في أحد مستشفيات لوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأميركية، ونقل جثمانه إلى دمشق تلبية لرغبته ووصيته في أن يدفن في وطنه الذي أحبّه وأعطاه الكثير.

وقال نقيب الفنانين زهير رمضان في تصريح للصحافيين: كان الراحل قامة فنية وإعلامية ووطنية كبيرة أسّست لنقابة الفنانين وللدراما السورية. وهو من أوائل المذيعين الذين قالوا «هنا دمشق» من التلفزيون العربي السوري. ويعدّ رحيله خسارة كبيرة للحركة الفنية والثقافية والإعلامية السورية. وعزاؤنا بما تركه من أعمال فنية متميزة.

وأضاف رمضان: سورية دائماً ولّادة، ونحن مستمرون في مسيرة العطاء والفن والتطوّر للحفاظ على هويتها وتراثها وتاريخها. مؤكداً أن هذه الزنابق والمشاعل التي حملت على عاتقها فكر هذا الوطن وهويته وثقافته وتراثه سوف تبقى خالدة في نفوس أبناء الشعب السوري مزروعة في تراب هذا البلد الطاهر.

بدوره، رأى مدير عام الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون رامز ترجمان أنه برحيل الفنان والإعلامي الكبير خلدون المالح فإن الثقافة والفن السوريين يفقدان قامة فنية وإعلامية كبيرة ومهمة جداً. مشيراً إلى أن الراحل كان محاوراً ومعداً متميزاً ومخرجاً رائداً في المسرح والإذاعة والتلفزيون وله بصمته الواضحة على العمل الدرامي والسينمائي السوري وتشهد له أعماله التي حظيت بمكانة كبيرة ويعرفها الصغير قبل الكبير كما كان مدرسة في الأخلاق والتواضع والمهنية.

من جانبه، أوضح طالب قاضي أمين مدير مركز التدريب الإذاعي والتلفزيوني أن وصية الراحل خلدون المالح أن يدفن في تراب سورية التي عاش فيها تأكيد جديد على أن أبناء سورية الحقيقيين لا يقبلون إلا أن يعيشوا ويدفنوا في ثراها.

مختار المالح نجل الراحل الكبير قال: علّمني والدي أن نكون يداً واحدة لنبقى أقوياء ونواجه الصعاب بصلابة ولهذا ينبغي أن يبقى الشعب السوري متكاتفاً في مواجهة الهجمة الإرهابية الظلامية التي يتعرض لها بلدنا. وعلينا جميعاً العمل على بنائه من جديد.

وأضاف: طلب والدي قبيل وفاته أن ينقل إلى وطنه ليموت فيه ولكن حالته الصحية لم تكن تسمح بذلك. وكانت إعادة جثمانه إلى سورية وصيته الأخيرة. شاكراً كل من ساعد في تنفيذ وصية فنان أحبّ بلاده كما أحبته وأعطاها كما أعطته.

الفنان أسعد فضة اعتبر أن الراحل خلدون المالح قدم عبر مسيرته الطويلة الكثير من الأعمال الدرامية والمسرحية إضافة إلى تقديمه عدداً من البرامج موضحاً أنه طاقة لا تتكرّر أبداً.

وقال الفنان مصطفى الخاني إن الراحل المالح كان له فضل على جميع الفنانين وهو من المؤسسين الحقيقيين للتلفزيون وللفن وللدراما في سورية. أما على الصعيد الإنساني فهو أكبر من أن تختصره كلمات لأنه من فرسان الزمن النبيل.

الفنان نعيم حمدي أوضح أن الراحل بدأ مسيرته الفنية والإعلامية من الصفر ولكن بفضل موهبته وإصراره واجتهاده وثقافته استطاع أن يقدم ويخرج أعمالاً ما زالت إلى الآن في ذاكرة الجمهور السوري والعربي.

وقال حمدي إنه من خلال علاقته مع الراحل على مدى نصف قرن كان فيها إنساناً حنوناً وإعلامياً كبيراً ومخرجاً متميزاً إضافة إلى كونه فناناً تشكيلياً رائعاً.

كما أشار الإعلامي محمد قطان وهو من أصدقاء الراحل إلى أنه فقد بوفاته صديق طفولته وشريك دربه الطويل منذ أن كانا طالبين في مدرسة تجهيز البنين الأولى في دمشق وصولاً إلى تأسيس فرق فنية رائدة لافتاً إلى أن المالح كان إنساناً مرهف الحسّ حنوناً عاشقاً كبيراً لدمشق.

يشار إلى أن الراحل خلدون المالح من مواليد دمشق عام 1938 ويعدّ من كبار وأوائل المخرجين التلفزيونيين في سورية، إذ أخرج عدداً من الأعمال التي حفرت في الذاكرة السورية والعربية منها «مقالب غوار» و«صح النوم» بجزأيه. و«وين الغلط» و«وادي المسك». كما أخرج الفيلم السينمائي «صح النوم»، فضلاً عن إخراجه التلفزيوني لمسرحيات المبدعين دريد لحام ومحمد الماغوط كـ«غربة» و«ضيعة تشرين». وكان آخر أعماله إخراج مسلسل «الجمل» الذي حصل على الجائزة الأولى للدراما في مهرجان القاهرة للإذاعة والتلفزيون.

رواية «حفيد سندباد»... حبكة متخيّلة لأسئلة المستقبل

محمد ميلود غرافي*

ما الذي يحصل الآن في الرواية العربية؟ ألم تعد الواقعية التي شكلت البعد الأكثر حضوراً وتميزاً في الكتابة الروائية العربية، قادرة على استيعاب اللحظة التاريخية الرهيبة التي يعيشها العالم العربي؟ فبعد رواية «2084، حكاية العربي الأخير» لواسيني الأعرج التي تحاكي رواية (1984) لجورج أورويل، ها هو نصّ روائي جديد للكاتب اليمني حبيب عبد الرب سروري يؤثث أحداثه في مستقبل كارثي، عربياً وعالمياً، ويستلهم هو أيضاً فكرته من رواية الكاتب البريطاني.

وإذا أضفنا إليهما الرواية الفرنكفونية لبوعلام صنصال التي تحمل عنوان رواية واسيني الأعرج (2084) نفسه، فإن التساؤل حول ما إذا لم تكن الرواية في العالم العربي تشهد تحولاً فنياً جديداً في انسجام مع التطورات السياسية والاجتماعية، التي يشهدها العالم بشكل عام والمنطقة العربية بشكل خاص، يظل تساؤلاً ملحّاً ومشروعاً.

تدور أحداث الرواية في العام 2027. يعثر السارد علوان الجاوي على حاسوب في حاوية مقهى. يأخذه إلى بيته ويتمكن من سبر أغوار ملفاته ثم يكتشف أن صاحب الحاسوب (نادر الغريب) كان من ضمن زملائه في جامعة باريسية سنوات الثمانينيات من القرن الماضي. هكذا يسافر بنا الراوي داخل جزء من حياة نادر، الذي يسافر بنا بدوره في الكثير من بقاع العالم حيث لاهمّ له سوى الوقوف على ما يدهشنا. وكلما امتد بنا السفر مع الراوي من جهة ونادر من جهة ثانية صار كل شيء نسبياً وتحطمت الأيديولوجيا.

تحكي رواية «حفيد سندباد» الصادرة مؤخراً، عن دار «الساقي» ـ بيروت رحلتين متوازيتين لشخصيتين جمعت وفرقت بينهما ظروف عدة، ثم جمعتهما ثانية في ظروف أليمة. بنيتها الحكائية تستند إلى شخصيات مركزية أربع: علوان الجاوي، يمني شاهد على التحولات السياسية التي عصفت باليمن منذ النصف الثاني من القرن العشرين. يغادر إلى باريس للدراسة، ويمكث فيها استياء بنكران بلاده له وتشبعاً أيضاً بالفكر الغربي الذي منحه تكويناً جامعياً في مجال الإلكترونيات، وضمنت له منصب أستاذ في أرقى الجامعات الباريسية. وكما هو وارد في روايات حبيب سروري الأخرى، فإن محطات عديدة من حياة البطل تشبه إلى حد كبير محطات الكاتب، وقد يكون بطل «حفيد سندباد» هو نفسه بطل رواية دملان المهووس بجهاز الكمبيوتر وبرمجياته، لكن ملامح السيرة الذاتية لاتهم إطلاقاً هنا، لأن «حفيد سندباد» لا تستلهم هذه المحطات إلا بما يناسب المسار السردي. يعيش علوان وحيداً في باريس بعد تجارب حب وزواج فاشلة، فينتهي به الأمر وهو العاشق المتيم بعالم الإلكترونيات والإعلاميات إلى اتخاذ إنسان آلي (روبوت) رفيقاً له في البيت يخدمه ويسهر على وضعه الصحي ويبرمج بشكل دقيق مسار حياته اليومية ابتداء من خروجه من البيت حتى عودته إليه.

علاقة علوان باليمن علاقة متقلبة تتراوح بين الحب والحنين والغضب. استقراره في باريس نهائياً مرده خاصة إلى أن نظام بلده رفض أن يستقبله كمواطن رفقة زوجته الفرنسية: «كانت صفعة العمر. كرهت اليمن بعد ذلك بحق، وكان درس العمر أيضاً: «الحياة ليست درباً بهيجاً. هي متاهة تصنعها الصدف والمفاجآت، الحاجة والضرورات، الغدر والخيانات. الخفي فيها أهم وأنطق من الجلي أو المتوقع، حسب عبارة كتبها نادر».

لكن علاقته بالغرب في الوقت نفسه ليست علاقة حب ساذج، إنما علاقة توازن عقلاني فبقدر ما هي إعجاب بقدر ما هي إدانة ونقد لاذع لما آل إليه من جشع رأسمالي وهيمنة «سلطة المال والتكنولوجيا»، على القيم الإنسانية النبيلة.

صوت علوان هو صوت الشاهد على الخراب الحاصل في العالم العربي بدءاً من فشل التجربة الاشتراكية وهيمنة الأنظمة الديكتاتورية وانتهاء بفشل الربيع العربي.

الشخصية الثانية، نادر الغريب، مغربي وُلد خارج العلاقة الزوجية من أب ثري وأمّ طبيبة درست في باريس وفاعلة جمعوية في المجال الصحي. سيقطع علاقته ببلده (المغرب) عندما يرفض أبوه الاعتراف به، وسيكتفي بشهادة الماجستير وبتكوينه البارع في مجال الإعلاميات ويجوب الكرة الأرضية بوهيمياً باحثاً «عن وحدة الإنسان في هذا الحيز الضيق من الكون». نادر هو صوت الأقلية النادرة التي تحلم بعالم يسود فيه الحب والإخاء بين البشر، وحلمه يبدو للكثيرين طوباوياً. (هل هو سبب موته الذي يشبه الانتحار؟). إنه أيضاً حامل رسالة حضارية استلهمها من رحلاته الكثيرة ووقوفه على معالم تاريخية وعمرانية متعددة. إحدى تلك الرسائل تأتينا من ضريح شاه جان الذي شيد تاج محل: «رجوتك يا بني: احمل لشعوبكم العربية برقية عاجلة. قلم لهم: لن تنجوا إلا إذا دفنتم عصور الطغاة والظلاميين (كابْني أورانجزب) التي تتوالى في تاريخكم حتى اليوم، واستلهمتم بدل ذلك من أفكار أمثال ابْني الحبيب دارا الذي أراد فتح الجسور بين الحضارات، وجعل الثقافة والفن فناراً يضيء حياة الأمة».

مايا طالبة روسية حطت رحالها في فرنسا كي تنجز رسالة الدكتوراه تحت إشراف البروفيسور علوان الجاوي. يهيم بها هذا الأخير حباً لكن مايا متزوجة وستكتم عن علوان سرّيْن: السرّ الأول هو أنها بنت زميل له. ستأتي إلى باريس كي تقترب من أبيها طامعة في أن تسمع منه كلمة اعتذار عن قطيعته الفجائية والنهائية معها ومع أمها. لكنها لم تسمع منه اعتذاراً أبداً ولا حتى اعترافاً أمام زملائه بأنه أبوها. لم تبح مايا لأستاذها وصديقها علوان بهذا السر إلا ساعات قليلة قبل مناقشة رسالتها.

السر الثاني سينكشف صبيحة يوم 31 تموز 2027 أي بعد 32 سنة من الفراق مع علوان الجاوي: مايا متزوجة منذ بداية إعداد رسالتها في باريس بشخصية أخرى مهمة في الرواية وستنجب منه ولداً. الذي يجمع بين نادر ومايا هو اشتراكهما في ألم فقدان الأبوة. الباحث الشهير الهارب من موسكو أيام «الزمن السوفييتي» ظل إلى مماته في باريس منقطعاً عن ابنته. وهو ما سيكون له وقع صدمة بالغة على مايا «يكفيني أن يقول أمام الملأ إنه أبي (...) وإنه من سماني مايا». وهو إحساس نادر نفسه تقريباً، الذي تلقى جواباً مؤلماً من طرف والده حين تعرف إليه وطلب منه فقط أن يمنحه اسمه العائلي: «لو كنت ابني أيها السيد، لكنت كتبت الآن ورقة تسمح بوضع اسمي في جوازك، لكنني لا أعرفك».

بهلول، ليس رجلاً ولا امرأة. إنه إنسان آلي أو روبوت كما يحلو للسارد أن يسميه. هو «كتلة معدنية بيضاء لامعة، بطولي تماماً، أرشق مني قليلاً، مستيقظة ليل نهار، تتقاسم حياتي ومنزلي وتعبره كيفما تريد، بدون حرج، كما لو كان منزلها، وتقبع تراقب حركاتي وسكناتي طوال اليوم». يسهر بهلول على الاعتناء الكامل بعلوان: يسمعه موسيقى، يتحاور مع الثلاجة «الذكية» ويقوم بإرسال طلبات شراء حاجيات البيت من أطعمة، «يستقبل ما يبعثونه إلى البيت، يموضعه في محله على الرفوف وفي الثلاجة بكل دقة». ويُعدّ الوجبات الغذائية ويُدخل علامات الطلاب في الكمبيوتر ويُعدّ القائمة النهائية لكشف العلامات ويشحن بطاريات سيارة علوان الكهربائية التي تسير بدون سائق... وفي كل تحديث حسب البرامج الإلكترونية الجديدة تنمو لدى بهلول قدرات هائلة في خدمة صاحب البيت حتى أنه صار يعانقه «بكل حميمية» أثناء عودته إلى البيت، وفوق هذا كله تظهر على بهلول علامات الحزن والقلق والفرح. لذلك فالراوي لا يستعمل أبداً صفة «إنسان آلي» للحديث عن بهلول، إنما يضعه في خانة ما يسميه «الروبوتات المؤنسنة» التي بدأت تكتسح العديد من المجالات وتعوّض الكائنات البشرية في أداء مهامها، إلى درجة أنها أصبحت تطالب هي أيضاً بحقوقها على «فايسبوك» الروبوتات وتصدر بيانات باسم الروبوتات المؤنسَنة.

تشكل هذه الأسماء الشخصيات الأهمّ في الرواية من حيث تحكّمُها في كل البنية الحكائية والسردية للنص ومن حيث العلاقات التي تجمع بينها بشكل مباشر أو عبر الذاكرة ووسائط أخرى مثل الكمبيوتر. غير أن لرواية «حفيد سندباد» ميزتان:

الأولى أنها تؤثث أحداثها في خيط زمني يمتد بالنسبة لقارئها الحالي وطيلة العشر سنوات من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل. وبذلك فهي رواية التنبؤ التي تجتمع فيها عناصر الواقع بعناصر الخيال، المستند منطقياً إلى حصيلة ما آل إليه العالم سياسياً واجتماعياً وتكنولوجياً منذ مطلع القرن الواحد والعشرين إلى الآن. إنها من جهة رواية النظرة التشاؤمية إلى العالم، لكنها في الوقت نفسه رواية الأمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه: الحروب وتفسخ القيم وفقدان الإنسان لإنسانيته وتعويضه بالأجهزة الآلية هي أشياء على النقيض تماماً من أمل ـ نادر ـ يتمثل في ما يرمز إليه نادر الغريب من هوية متعددة وتسامح وانفتاح متزايد على الآخر، «فهو يكره الحدود، لاسيما الجدران الإسمنتية بين الشعوب». وكأن نادر يريد فقط أن يستردّ الإنسان هويته الطبيعية لا أقل ولا أكثر: «وُلد نادر في بلد متعدد الثقافات، عميق الهوية: عربية، أمازيغية، أوروبية، يهودية. إحدى رئتيه في الشرق والأخرى في الغرب: المغرب. من أم استثنائية أميمة. والد أمّه، السيد محمد الغريب، مغربي من عائلة مثقفة عريقة، من أصول غرناطية نبيلة. وأمّ أمّه، السيدة فاطمة العابدي، مغربية من أصول أمازيغية جزائرية، وإسبانية وفرنسية». ذلك أن صدمة نادر الدرامية بدأت حين تنكر له أبوه. للأبوة هنا معنى أنثروبولوجي وثقافي رمزي وليس معنىً بيولوجياً. نكران الأب لواحد من سلالته هو في الحقيقة نكران لماضيه الهوياتي المتعدد وقطيعة معه. لذلك ليس غريباً أن ينحاز نادر الغريب إلى مايا وتنحاز مايا إليه منذ أن التقيا في مطار موسكو، أو على الأصح منذ أن اكتشف أحدهما في الآخر محنتهما ومصيرهما المشترك في مسألة الأبوة. زواجهما، هو المغربي وهي الروسية، وإنجابهما لفؤاد (كمعادل للقلب والحب والإخاء) ليس سوى تحدٍّ لتلك القطيعة ولذلك النكران ووقوفهما ضد مشاريع الانغلاق الهوياتي. إنهما يشكلان بذلك كائناً واحداً برئتين وبرافديْن ثقافيين مختلفيْن ومتكامليْن.

ولعلها صدمة الأبوة نفسها، (لا بل الأمومة هذه المرة)، تجاه الوطن/الأم، اليمن، هي التي جعلت علوان يتألم سنوات عدّة ويكره بلده الأصلي، لكن سيعود إليه زائراً بعد أكثر من ثلاثين سنة وسيصاب بصدمة أخرى حين يجد اليمن غارقاً في حرب ضروس. فيعود إلى باريس، «ثم إلى المستشفى مباشرة بعد يوم واحد. وكانت تلك رحلتي الأخيرة إلى اليمن، لكنها صارت بامتياز فاتحة رحلات منتظمة إلى المستشفى» (ص. 176).

يجمعه بمايا الروسية ونادر المغربي إحساس مشترك هو حاجتهم جميعاً إلى كسب «اعتراف» بكينونتهم وانتمائهم المشروع إلى أبوتهم/بلدانهم أولاً. وحين زار اليمن بعد سنوات عديدة من هذه الصدمة سيفعل ذلك بشكل سرّي عن طريق جواز مزوّر: «مجرد الحديث عن تأشيرة سفر لليمن يرفع ضغط دمي، ينبش في جراحي القديمة وأحاسيسي الأليمة، ويصيبني بالحساسية المفرطة» (ص. 160).

إن «حفيد سندباد» حلقة ضمن سلسلة روايات حبيب سروري السابقة. إننا نجد لها مرجعيات فنية في ابنة سوسلوف ودملان خاصة حيث يلعب فيهما الحاسوب دوراً مهماً في إمداد البنية السردية والموضوعاتية بروافد الربط بين الواقعي والمتخيل وبين التراثي والحداثي في خلق علاقات تناصّية. من هذه العلاقات مثلاً أن بطل رواية دملان يلجأ إلى إدخال برنامج «شهرزاد» في الحاسوب لإدراج رواية داخل الرواية مثلما تفعل شهرزاد في ألف ليلة وليلة، وأن الحاسوب أيضاً هو الذي يشكل بؤرة البنية السردية لحفيد سندباد من حيث أنه يكشف في محتواه عن أجزاء كثيرة من رحلات وأسفار نادر الغريب متيحاً لتقنية الحكاية داخل الحكاية تجسيد مراميها.

لكن حفيد سندباد ستذهب بعيداً في توظيف أجهزة العالم التكنولوجي في الفضاء الروائي وذلك من خلال جعل الإنسان الآلي (أو بالأحرى الروبوتات المؤنسنة) شخصيات قائمة بذاتها في نسج خيوط البنية السردية وموضوعاتها. فبهلول يرمز في آن معاً إلى قمّة ما توصل إليه الذكاء الإنساني وإلى عبثية هذا الإنجاز نفسه. وبموازاة ذلك وانسجاماً مع منطق اشتغال هذه الأدوات والأجهزة تغتني لغة الرواية بمعجم إلكتروني ومعلوماتي مكثف: «آيباد، سيلفي، إيميلات، آيفون، آبل، نُصيْص هاتفي، غوغل، فايسبوك».

وعلى مستوى البنية الحكائية يلعب توظيف هذه الأدوات، الحاسوب منها خاصة، دوراً مركزيّاً في تشكيل الحبكة كي تأخذ الأحداث مساراً منطقياً، بل إنها، إلى جانب عناصر سردية أخرى، تمنح القارئ إجابة عن السؤال الذي يظل يراوده إزاء بعض ما يبدو مجرد مصادفات: هل هو مجرد مصادفة مثلاً أن يعثر علوان الجاوي على حاسوب زميل قديم له في زبالة مقهى؟ هل هو مجرد مصادفة أن يلتقي علوان بمايا بعد ثلاثين سنة وهو عند الباب في انتظار عودة نادر الغريب إلى بيته الباريسي؟ أليست هذه المصادفة الأخيرة خطة دبرها من قبل نادر الموجود في حالة غيبوبة في مستشفى باريسي إثر حادثة سير تشبه انتحاراً كي يكون علوان الجاوي امتداداً لأبوة نادر تجاه ابنه فؤاد المقيم بالجنوب الفرنسي؟

دخول الحاسوب وبهلول على خط أحداث الرواية يعطي لهذه «المصادفات» كامل مشروعيتها. ذلك على الأقل ما توصل إليه السارد وهو يشك في أن يكون كل ما حدث له بين صباح 30 تموز 2027 وصباح اليوم التالي مجرد مصادفات.

يضعنا الرواي إذن على سكة شكوكه في أن تكون كل أحداث هذين اليومين من قبيل المصادفة ويكاد يقنعنا أن ذلك من تدبير الذكاء الاصطناعي لبهلول (الذي يرفض بالمناسبة هذا الإسم) وأنها «خارطة طريقه» (ص. 222) التي برمج أحداثها بكل دقة. وإلا لفقد النص الروائي عنصر الإيهام بالواقع ومنطقية الأحداث وصار في عين القارئ تعسّفاً على مساره السردي ومسّاً بإبداعيته. ولعل هذا الحذر التقني الذي يغلفه الروائي في قالب فلسفي هو ما تلخصه العبارة الأخيرة لعلوان الجاوي في النص: «ما قيمة حياتي، كل حياتي، دون هذه الصدفة إن كانت صدفة حقاً، أو إن كانت مجرد موعد؟» (ص. 222).

فلسفياً يأتي هذا التصور للحياة كاستيعاب تجريبي واستكمال في الآن نفسه لعبارة نادر الغريب التي يرددها علوان بشغف: «الحياة ليست درباً بهيجاً. هي متاهة تصنعها الصدف والمفاجآت». أما فنّياً، فتأتي كتبرير للمسار الذي تأخذه الأحداث في صيغتها التركيبية فيكون معادلها التقني: ما قيمة نص روائي من دون مصادفات بعضها حقيقي وبعضها الآخر معدّ سلفاً؟

* شاعر وأكاديميّ مغربيّ مقيم في فرنسا

«ياسمين» يحظى بتنويه خاصّ في مهرجان «سوس الدولي» ـ المغرب

نال الفيلم السوري القصير «ياسمين» للمخرج السينمائي المهند كلثوم تنويهاً خاصاً من إدارة مهرجان «سوس الدولي» الذي اختتم دورته التاسعة أمس في مدينة أيت ملول ـ ولاية أغادير جنوب المغرب.

ومثّل الفيلم «ياسمين» سورية ضمن لائحة الأفلام الوثائقية القصيرة المميزة بمشاركة نحو 30 فيلماً عربياً وعالمياً من بلجيكا والبحرين وتركيا والمغرب وفرنسا ومصر وفلسطين والعراق. بينما ضمت لجنة التحكيم كل من المخرج والمنتج البلجيكي سيلفاتور ليوكاتا، ومن المغرب الممثلة هدى صدقي والمخرجين ابراهيم اشكيري وعبد الرزاق الزيتوني، والناقدين السينمائيين حسن أورايس وتوفيق ناديري.

فيلم «ياسمين» ينتمي إلى نوعية الأفلام الوثائقية ديكودراما ويتحدّث عن معاناة الأطفال السوريين خلال فترة الأزمة، ويستعرض آثارها على أحلامهم وأفكارهم ونظرة هؤلاء الأطفال إلى مجريات الحرب الشرسة على أرضهم وبيوتهم ومدرستهم ضمن نظرة حالمة بمرآة أصابتها شظية، لكنها ظلت تعكس صورة نقية لغد محمول على عطر الياسمين.

فيلم «ياسمين» من إنتاج «صورة الحياة للإنتاج السينمائي والتلفزيوني»، إخراج المهند كلثوم، سيناريو منعم السعيدي والمهند كلثوم، وبطولة الأطفال: هبة المرعي، لونا الأخرس، سروت كبتول، وعبد الرحمن مصطفى. المخرج المنفذ هنادي المحتسب، مدير التصوير أسامة معنية، كتابة التعليق والحوار أنصاف سليطين، التعليق الصوتي الفنان مالك المحمد، مدير إدارة الإنتاج بسام خدام، مدير الإنتاج وسيم البرم ووائل البرم، موسيقى تصويرية سعد الحسيني، مدير الإضاءة جهان قطيش، مهندس الديكور علي خليلي، التنسيق الإعلامي نور ملحم، المونتاج محمد البلخي.